مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 09، عدد رقم: 03، سبتمبر 2020، صص: 83- 108

تاريخ الاستلام (2020/09/01) تاريخ القبول (2020/09/28) تاريخ النشر (2020/09/30)

التفسير الموضوعي للسورة القرآنية

مقاربة لسانية نصية

Objective interpretation of t he Qur'anic Surah

Textual linguistic approach

سبع بلمرسلي
مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
جامعة تيارت (الجزائر)، belmorsli@hotmail.com

ملخص:

(علم النص) آخر ما توصلت إليه اللسانيات الغربية المعاصرة، به انتقل البحث اللساني من نحو الجملة إلى نحو النص، وأصبح التحليل النصي للخطاب قائما على نظام الوحدة الموضوعية أو البنية الكبرى، وبها ترتبط الوحدات أو البنى الصغرى في النص. وقد أقام (علم النص) جملة من المعايير يحكم بها على نصية أو نصانية النص، ويزعم أصحاب هذا الفن أن لهم السبق فيما توصلوا إليه! فإن كان زعمهم يصدق عندهم في الغرب، فهل سبقوا حقا العرب في ذلك؟ وللإجابة عن هذا السؤال تأتي هذه المقاربة لواحد من العلوم الكثيرة عند العرب والمسلمين، هو التفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

كلمات مفتاحية: التفسير الموضوعي، الوحدة الموضوعية، علم النص، المعايير النصية.

المؤلف المرسل: سبع بلمرسلي، الإيميل: belmorsli@hotmail. com

Abstract:

Textual science is the latest attainment in contemporary Western linguistics, whereby the linguistic research has moved from the syntax to the text, and the textual analysis of the discourse has become based on the objective unit system or the major structure, and with it the units or minor structures in the text are linked. , and he established (Text science) is a set of criteria that can be judged on the textual or textual nature of the text, and the owners of this art alleged that they had the lead start in what they have reached! If their claim was true to them in the West, did they really precede the Arabs in that? To answer this question, this approach comes from one of the many sciences among Arabs and Muslims, which is the objective interpretation of the Qur'anic Verse.

Keywords:

objective interpretation, thematic unit, text science, textual standards.

علم التفسير من أشرف العلوم التي اهتم بها علماء المسلمين، ما زال التصنيف والتأليف فيه قائما إلى اليوم، وما تزال المناهج والطرائق فيه تتبدى وتتجدد، فيضيف فيه أهل كل عصر لمسة من اللمسات المصبوغة بصبغة عصرهم. والتفسير الموضوعي لون من ألوان التفسير التي عرفها الدرس القرآني حديثا، وإن كانت جذوره موجودة بوجود التفسير نفسه في عصر التنزيل وما بعده، وملامحه لم تخل منها كتب التفسير عند السابقين منذ بدايات التأليف الأولى أواخر القرن الأول الهجري، وإن لم تكن بالصورة التي وصل إليها اليوم.

وفي هذه الوريقات يحاول الباحث التوقف عند التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ويبرز أصول هذا المنهج التفسيري وأهم مرتكزاته في تحليل السورة القرآنية، ثم يقاربها من زاوية لسانيات النص المعاصرة، ذلك أن كلا منهما يتناول الخطاب أو النص باعتباره كلًّا متكاملا يحكمه نظام البنية الكبرى، وليس باعتباره مجرد وحدات وبنيات صغرى يتكشف القارئ دلالاتها. ومن ثم إدراك أن ما جاء به (علم النص) المعاصر في باب تحليل النصوص والخطابات قد سبق إليه التفسير الموضوعي للسورة القرآنية تحليلا وإجراءً! ولكن يحسن قبل الخوض في صلب

الموضوع التقديم ببعض المفاهيم المقتضبة المتداولة في كتب علوم القرآن، يتعرف القارئ من خلالها بعض متعلقات التفسير الموضوعي.

أوّلًا: مفاهيم وتوضيحات:

التفسير من حيث العموم إما موضعي(تجزيئي)، ويشمل الأنواع الثلاثة: التفسير الإجمالي والتفسير التحليلي والتفسير المقارن. وإما موضوعي(توحيدي) بأنواعه التي سنأتي عليها[1].

1-مفهوم التفسير الموضوعي:

أورد د. مصطفى مسلم تعريفات عدة للتفسير الموضوعي نذكر منها اثنين[2]، الأول: هو"جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية". والثاني أنه: " علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر". وقد رجّح الباحث التعريف الثاني لكونه يتناول كل أنواع التفسير الموضوعي.

2-نشأة التفسير الموضوعي وأهميته:

الدرس الموضوعي للقرآن الكريم درسٌ حديث، لم ينشأ إلا في القرن الرابع عشر الهجري، حينما أدرجت مادة (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) ضمن مقررات وبرامج التفسير في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلا أن لبنات هذا الدرس كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة الرسول-ﷺ-، وقد أعجب العلماء والباحثون والدارسون بهذا اللون من التفسير، وتفاعلوا معه دراسة وتأليفا.[3]

وتتجلى أهمية هذا اللون من التفسير في كونه" يهتم بالهدايات القرآنية ويحاول الكشف عنها من خلال السياق والسباق للآيات الكريمة، ومن خلال تتبع الكلمة واستعمالاتها، ومن خلال التعرف على المناسبات والروابط بين السور والآيات، وبين بدايات الآيات وفواصلها وافتتاحيات السور وخواتيمها"[4]

3-أنواع التفسير الموضوعي: التفسير الموضوعي أقسام ثلاثة[5]:

أ- التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: بأن يجمع المفسر كلمة يتتبع مواقعها في القرآن الكريم وينظر استعمالاتها باشتقاقاتها المختلفة، ثم ينظر في التفسير وما

قيل فيها ليخلص إلى دلالاتها وهداياتها. فيكون تتبعا لأساليب القرآن الكريم في استخدام تلك الكلمة، وكتب الغريب والأشباه والنظائر عند السابقين هي الأعنى بهذا اللون من التفسير الموضوعي، لكنها تبقى تتوقف عند الدلالة الموضعية للكلمة، أما المعاصرون فهم أكثر اجتهادا في الربط بين الدلالات المختلفة للكلمة والربط بينها باختلاف المواضع. وكمثال على ذلك عند الأوائل استعمال كلمة (خير) في القرآن عند الدامغاني(-478هـ) في كتابه(إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) وقد وجد لها ثمانية استعمالات. وكلمة (أمّة) ومشاركاتها في الاشتقاق أو ما كان قريبا منها(أمِّي-الإمام-الأَمُّ-أمّا) عند الأصفهاني في(مفردات القرآن) وتوظيفاتها، ولكنه لم يربط هو الآخر بين مختلف الدلالات في مختلف المواضع. بخلاف ما إذا نظرت إلى بحث الكلمة نفسها عند أحمد حسن فرحات ودلالاتها اللغوية والفكرية والشرعية، وكيف يربط بين توظيفاتها في القرآن.

ب- التفسير الموضوعي للموضوع القرآني: أن يختار المفسر موضوعا يتتبعه من خلال سور القرآن الكريم، ويجمع الآيات المتعلقة به، ثم ينظر في التفسير للوقوف على معانيها ومضامينها، وبعد الإمعان والنظر فيها، يحاول الباحث إيجاد العلاقات والروابط بينها، ليخلص إلى ترتيبها في عناصر تكون بمثابة الأفكار الأساسية للموضوع، ثم ينظمها في خطة ذات أبواب وفصول لها مقدمتها وخاتمتها، ويعرض ذلك كله في شكل منظم وأسلوب أدبي راق جذاب، مركزا على الهدايات القرآنية في الموضع، ومتجنبا الأمور الجزئية، من دقائق وتفاصيل لغوية أو نحوية أو إعرابية أو قراءات قرآنية أو تخريجات أصولية أو تفريعات فقهية أو استطرادات جدلية وغيرها، إلا بالقدر الذي يتطلبه الموضع. ومحاولا الربط بين التوجيهات القرآنية وواقع الناس وأحوالهم، من خلال المقاصد والحكم التي تهدي إليها الآيات. وهذا اللون من التفسير هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أطلق لفظ التفسير الموضوعي فإنه ينصرف إليه، والكتب في هذا اللون من التفسير عند الأوائل أو عند المحدثين والمعاصرين كثيرة.

ج- التفسير الموضوعي للسورة القرآنية: وهذا اللون يكاد يكون شبيها بسابقه إلا أن دائرته أضيق، ويكون فيه الاهتمام بتحديد الهدف الأساس من السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو المحور لتفسيرها الموضوعي[6].

4-طريقة البحث في التفسير الموضوعي للسورة:

الطريقة هي: "أن يستوعب الباحث هدف السورة الأساسي، أو أهدافها الرئيسية، ثم يبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساسي للسورة، ثم ينظر إلى ترتيب السورة بين السور المكية أو المدنية، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع، والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة. وسيجد الباحث أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية. "[7]

وهذا اللون من التفسير لم يكن معروفا عند القدامى من المفسرين، وغاية ما عرف منه عندهم إشارات إلى أهداف السور، من غير ربط لها بأجزاء ومقاطع السورة، وحديث عن المناسبات والارتباطات بين الآيات، أو حتى بين السور عند بعضهم، لكنه أيضا لا يرقى إلى المستوى الذي وصلت إليه الدراسات الموضوعية لسور القرآن الكريم اليوم، ولعل من أبرز من أشار إلى المناسبات وأثرها في التفسير، وأجراها في تفسيره وإن بغير الصورة التي هي عليها اليوم، الإمام الزمخشري(-538هـ) في كشافه، والإمام الرازي(-606هـ) في (مفاتيح الغيب)، والإمام النيسابوري (-850هـ) في تفسيره (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) والإمام البقاعي(-885هـ) في (نظم الدرر في تفسير الآيات والسور). كما أشار إلى ذلك بعض من كتب في علوم القرآن من أمثال الإمام الزركشي(-794هـ) في (البرهان في علوم القرآن) والإمام السيوطي(-911هـ) في (الإتقان في علوم القرآن).

ويبقى الإمام البقاعي أكثر السابقين إدراكا وتعبيرا عن فن المناسبة في القرآن، من خلال كتابه (نظم الدرر في تفسير الآيات والسور) والذي اختصره في كتابه(مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)"وقد كان البقاعي مؤمنا بأن القرآن كله وحدة واحدة، وأن كل سورة جزء من هذه الوحدة القرآنية العامة، وأن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لتكون فيما بينها وحدة واحدة للسورة، وقد أدار تفسيره

(نظم الدرر) على هذا الأساس، وقدم تحليلات رائعة. إن البقاعي رائد في هذا اللون من التفسير الموضوعي عند السابقين، وإن كانت تحليلاته-على روعتها ونفاستها- دون مستوى ما عند المفسرين المعاصرين"[8].

ومن المفسرين المعاصرين الذي اهتموا بهذا اللون من التفسير في أبعاده الموضوعاتية في سور القرآن الكريم، الشيخ رشيد رضا في تفسيره (المنار) والشيخ سعيد حوى في تفسيره (الأساس في التفسير) والشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره الرائع(التحرير والتنوير) والأستاذ عبد الحميد طهماز في سلسلته التفسيرية (من موضوعات سور القرآن) والتي نشرها في اثنتين وعشرين حلقة باثنتين وعشرين سورة، وتفسير الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي (على طريق التفسير البياني) وهو وإن كان في التفسير البياني للقرآن، إلا أنه يغلِّب طابع الموضوع والبحث في المناسبة بين الآي والسور، إضافة إلى بعض الدراسات الجزئية التي يتناول فيها أصحابها سورة من القرآن يدرسونها وفق هذا المنهج، منها: كتاب(الوحدة الموضوعية في سورة يوسف) لصاحبه حمد حسن باجودة، و(تفسير سورة يوسف) للدكتور أحمد نوفل، و(تفسير سورة الحجرات) للدكتور ناصر العمر، وكتاب(تدبر سورة الفرقان في وحدة الموضوع) للأستاذ عبد الرحمان حبنكة وغيرها.

ورغم كثرة الدراسات والتفاسير المهتمة بهذا النوع من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، تبقى -على الأقل في نظري - أجود ثلاثة مشاريع تفسيرية وفق هذا المنهج في هذا العصر هي: تفسير (نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان) للعلامة عبد الحميد الفراهي(-1930م)، وتفسير(في ظلال القرآن) لسيد قطب(-1966م)، و(التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) الذي أعده نخبة من علماء التفسير وعلماء القرآن، بإشراف: الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم. هذه الثلاثة لا شك أن فيها إضافات نوعية من حيث المنهج وطرائق العرض، أفادت كثيرا الدرس الموضوعي لسور القرآن الكريم، وأحدثت أثرا مهما في الدفع به نحو الاختصاص أكثر، والاستجابة لمتطلبات البحث التفسيري في هذا العصر، وسهلت على الدارسين والباحثين وطلبة

العلم أمر الإقبال على التفسير وبحثه ومطالعته. ولذلك فإن مظاهر التجديد فيها بادية، تنطق مخبرة بنفسها عن نفسها، فضلا عن أن يشهد بذلك الشهود.

ثانيا: تجليات الممارسة النصية في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية

(علم النص) أو (نحو النص) أو (لسانيات النص) أو (لسانيات الخطاب) كلها مصطلحات معبر بها عن معنى واحد[9]، وهو فرع من فروع اللسانيات الحديثة، واتجاه معاصر في دراسة النص، ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين كمرحلة جديدة في البحث اللساني بعد مرحلة الدراسة المعيارية في (نحو الجملة)، ليهتم بوصف النص ويصبح بذلك (نحو الجملة) جزءا منه. أسَّس له الهولندي (فان ديك) في أول كتاب له (بعض مظاهر أنحاء النص) سنة 1972م، ثم في كتابه (النص والسياق) سنة 1977م، لتتوالى الكتابات فيه بعد ذلك. وكان من أبرز من طور وأضاف في هذا العلم الأمريكي (روبرت دي بوجراند) بدءا بكتابه (النص والخطاب والإجراء) الذي نشر عام 1980م.

أولا: الوحدة الموضوعية

ينظر (علم النص) إلى النص على أنه "محكوم بوحدة كلية واضحة، بحيث يتألف من صيغ وجمل متراصة منسجمة متوالية، تصدر عن المخاطب الذي يود تبليغ الخطاب وإيصاله إلى المخاطب"[10]، ومن ثم فهو ينظر إليه على أنه وحدة كبرى، ذات أجزاء مرتبطة ببعضها، فيهتم بهذه الوحدة، وبكيفية ترابط أجزائها شكلا ومضمونا.

يقول فان دايك: "إن احد المصطلحات التي يجب أن تجليها الأبنية الكبرى هو مصطلح موضوع نص ما أو موضوع الخطاب أو موضوع الحوار. يجب أن نتعمق في القدرة الفعلية لمستخدم اللغة التي تمكنه من أن يجيب عن أسئلة في نصوص طويلة جدا ومعقدة، مثل: عمّ كان الحديث؟ ماذا كان موضوع الحديث؟ وما أشبه. يمكن لمتحدث اللغة ذلك أيضا حين يذكر في النص بصورة غير صريحة الموضوع أو التيمة بوصفها في حد ذاتها كلا. يجب إذن أن يستنبط الموضوع من النص. ومن ثم تكون القواعد الكبرى إعادة بناء شكلي (صوري) لهذا الاستنباط للموضوع، حيث يكون موضوع نص ما بدقة هو نفسه ما أطلقنا عليه البنية الكبرى أو جزءا منها"[11].

ويوضح في موضع آخر أنه، ومن خلال الوقوف على البنية الكبرى التي هي موضوع النص أو البنيات الكبرى في حال معالجة النص أكثر من موضوع، يمكن إعادة بناء النص وإنشاء نص آخر من خلال ربط الدلالات التي يهدي إليها النص بهذه البنيات، يقول: "وبخلاف أن مستخدمي اللغة يفهمون ويفسرون أوجه ربط الدلالة الكبرى في النصوص، وبخلاف أنهم يستنبطون موضوعا أو عدة موضوعات من نص ما، فإنهم قادرون بوجه عام على تقديم مختصر للنص، أي إنتاج نص آخر، يشتمل على علاقات خاصة بالنص الأصلي، حيث إنه يقدم بإيجاز مضمونه. وبرغم أنه يجوز أن تقدم لمستخدمي اللغة المختلفين اختصارات مختلفة للنص ذاته، كما سنرى، فإنهم يفعلون ذلك باستمرار بناء على قواعد عامة وعرفية، هي القواعد الكبرى"[12]

فعمود هذا العلم إذن هو (الوحدة الكلية الواضحة) أو (البنية الكبرى)، وهو عين ما يرتكز عليه التفسير الموضوعي للسور القرآنية، والمعبر عنه بـ(الوحدة الموضوعية) كما عند سيد قطب (-1966م) في تفسيره في (في ظلال القرآن)، أو بـ (النظام) كما عند حميد الدين الفراهي (-1930م) في تفسيره (نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان)، وربما عبر عنه البعض بـ(المناسبة الكلية) كما في تفسير الإمام البقاعي (-885 هـ) (نظم الدرر في تفسير الآيات والسور)، وكما في بعض كتب علوم القرآن من مثل (البرهان في علوم القرآن) للإمام الزركشي (-794هـ) و(الإتقان في علوم القرآن) للإمام السيوطي (-911هـ).

فهي وحدة تحدث عنها علماء القرآن والمفسرون السابقون والمعاصرون، فهم يعتبرون القرآن في وحدة موضوعه كأنه سورة واحدة، والسورة كأنها آية، والآية كأنها كلمة! وهذا كله لأن القرآن في مجموعه (خطاب) واحد موجه إلى الإنسان، يحمل السمات والخصائص ذاتها، وإن كان أجزاء، وسورا وآيات، وإن نزل مفرقا على فترات، واختلفت بيئات نزوله، بل وإن امتدَّ هذا الخطاب في المكان والزمان، واختلف الأقوام المتلقون له، واختلفت بيئاتهم. فسيبقى القرآن هو القرآن وحدة كاملة متكاملة!

وقد تحدث (فان دايك) في كتابه (علم النص) عن البنيات، وجعلها ثلاثة أنواع[13]:

1- بنية عليا: تتصل بشكل النص وتحدد نمطه وإطاره العام، كأن يكون قصة أو حكاية أو رواية أو غيرها.

2- بنية كبرى: وهي تلك المتعلقة بموضوع أو مضمون النص وهدفه العام الذي يعالجه. وعلى هذا فإن البنية القصصية مثلا بنية عليا، وهي مستقلة عن المضمون، أي عن البنية الكبرى لقصة معينة.

3- بنيات صغرى: وهي الأجزاء الصغرى أو الوحدات (الجمل) التي يتكون منها النص وترتبط ببنيته الكبرى.

وتشترك البنية العليا والبنية الكبرى في أنهما لا يتحددان بالنسبة لجمل أو متتالية معزولة من الجمل، وإنما بالنظر إلى النص كله، أو إلى أجزاء كبيرة منه على الأقل. على عكس الأبنية الصغرى الموضعية فإنها في مستوى الجمل[14]. والتحليل النصي يبدأ من البنية الكبرى المتحققة بالفعل، وهي تتسم بدرجة قصوى من الانسجام والتماسك، ومعرفة العلاقات بين الوحدات النصية مرهونة بالكشف عن هذه البنية.

وللوصول إلى البنية الكبرى أعطى جملة من القواعد منها الحذف والاختيار والتعميم والتركيب والبناء، ومعنى الحذف الاختصار، وأما الاختيار فمعناه انتقاء واحد من عناصر متعددة، والتعميم يعني حذف بيانات متعددة والتعويض عنها بواحد، والتركيب والبناء يعنيان دمج التفصيلات في بنية واحدة.[15]

فإذا جئنا إلى الدرس التفسيري الموضوعي للسورة فإننا لا نتحدث عن (بنية عليا)! لأن القرآن بنية واحدة، وإن شغل القصص حيزا منه! وأما (البنية الكبرى) فهي (النظام) أو (الوحدة الموضوعية) التي سبق بيانها. وأما (البنى الجزئية) فهي ما يعبر عنه علماء القرآن الدارسون لسوره وفق الاتجاه الموضوعي بـ(الدروس) أو (الهدايات) المستفادة من لمقاطع والوحدات، إذ إنهم يقسمون السورة إلى مقاطع والمقاطع إلى وحدات، كل مقطع أو وحدة يهدي إلى فكرة أو درس له ارتباط بما قبله أو بما بعده، لتجتمع لأفكار والدروس في النهاية حول الموضوع الأساس للسورة أو (البنية الكبرى) لها.

وهذا الموضوع الأساس قد بين المفسرون موضوعيا السور كيفية الوصول إليه، وقد أشار إلى بعض آليات ذلك الدكتور مصطفى مسلم في كتابه (مباحث في التفسير الموضوعي)، فعدّ منها[16]: معرفة سبب النزول، ودلالة اسم أو أسماء السورة، واستعراض الأحداث والقضايا البارزة التي عالجتها السورة، والفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة، والمناسبات بين مقاطع السور.

وهذا ليس مقصورا على العلماء المعاصرين وحسب بل إنَّ كلَّ مَن كان له اهتمام بموضوع السورة، وإن في اتجاه غير اتجاه التفسير الموضوعي، كان يسلك إحدى هذه الطرق أو بعضها أو غيرها، بل وربما يسلك ما ذكره اللسانيون من حذف وتركيب واختيار. في الوصول إلى موضوع السورة، وكان يكثر ذلك في الاتجاه اللغوي والبياني في التفسير، وكذا في الاتجاه الإصلاحي، وعند علماء القرآن أيضا كالزركشي في (البرهان) والسيوطي في (الإتقان).

ثانيا: المعايير النصية

كان ما تقدم من حيث الجملة، فإذا جئنا إلى بعض التفصيل، فإن (علم النص) لا يحكم على النص بالنصية أو النصانية –أي بأنه نص- إلا إذا توفرت فيه معايير سبعة[17]: السبك والحبك والقصدية والتقبلية والإعلامية والمقامية والتناص. ولننظر إلى هذه المعايير والمراد بكل واحد منها باختصار في (علم النص)، ثم لننظر فيما كتب في التفسير الموضوعي للسور، ليقف القارئ بعد ذلك بنفسه ويقارن ويحكم!

1-السبك(الاتساق):

السبك أو الربط أو الاتساق أو التماسك، ويقصد به في لسانيات النص: "الكيفية التي يتم بها ربط العناصر اللغوية على مستوى البنية السطحية بحيث يؤدي السابق منها إلى اللاحق"[18]. يقول دي بوجراند: "وهو يترتب-أي السبك- على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط. ووسائل التضام تشتمل على هيئة نحوية للمركبات والتراكيب والجمل، وعلى أمور مثل التكرار والألفاظ الكنائية، والأدوات والإحالة المشتركة والحذف والروابط. "[19]

ويوضح محمد خطابي هذا المعنى الذي جاء عند دي بو جراند بالقول: "يقصد عادة بالاتساق ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكِّلة لنص/ خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمَّته. ومن أجل وصف اتساق الخطاب/ النص يسلك المحلل الواصف طريقة خطية، متدرجا من بداية الخطاب(الجملة الثانية منه غالبا) حتى نهايته، راصدا الضمائر والإشارات المحلية، إحالة قبلية أو بعدية، مهتما أيضا بوسائل الربط المتنوعة كالعطف، والاستبدال، والحذف، والمقارنة والاستدراك، وهلمّ جرا. كل ذلك من أجل البرهنة على أن النص/الخطاب(المعطى اللغوي بصفة عامة) يشكل كلا متآخذا. "[20].

المقصود إذن بـ(السبك) أو (الاتساق) البحث في الوسائل الشكلية التي تربط بين عناصر الجملة الواحدة، أو بين جمل وأجزاء المقطع الواحد، أو بين الفقرات والمقاطع، ثم الترابط في النص كله. وهذا الجانب أغلبه مرتبط بالتركيب، وهو مما يبحث في نظم الكلام، ونظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني (-471هـ) التي أسس لها في كتابه (دلائل الإعجاز) خير ما يعين على الفهم والتطبيق في هذا الباب. وقد كان الزمخشري (-538هـ) أحسن مَن امتثلها في تفسيره (الكشاف)، والفخر الرازي(606هـ) في كتابيه(نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) وتفسيره الكبير (مفاتيح الغيب). وسائر من اشتغل بعلم التفسير إلا ويحتاج إلى الحديث عن هذا الربط، بغض النظر عن الإيجاز والإسهاب، بل إن علماء القرآن لم يهملوا هذا الجانب، وخصصوا له فصولا وأبوابا، في الحروف والأدوات والصيغ التي بها يربط بين آحاد الكلام، من عطف واستدراك واستفهام وتكرير ووصل وفصل وذكر وحذف وغيرها. والتفسير الموضوعي ليس بدعا من التفسير في هذا الجانب، غاية ما في الأمر أنه لا يعطي هذا الجانب أكبر من الحيز الذي يتطلبه، فهو لا يخوض في التفاصيل والجزئيات اللغوية والنحوية والبلاغية والفقهية وغيرها إلا بالقدر الذي يخدم المقام.[21]

2-الحبك (الانسجام):

(الحبك) أو (الانسجام) أو (الالتحام) أو(الترابط) أو (التماسك المعنوي) مصطلحات يعبر بها عما ينبغي أن يكون عليه النص من انسجام وتناسب بين أجزائه وفي جملته، فهو يتوقف عند (روبرت دي بوجراند) على الترابط الفكري والمفهومي، وتشتمل وسائل الالتحام عنده على: (1)العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص التي تربط المعاني والدلالات في النص. و(2)معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف. و(3) السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية، ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم. [22] فالحبك إذن هو "الطريقة التي يتم بها ربط التراكيب على مستوى البنية العميقة للنص، التي ربما لا تظهر على مستوى السطح"[23]

ويعبر د. سعد مصلوح عن هذا الترابط المفهومي بالذهاب إلى أن الحبك يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص، وهي الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة من المفاهيم، والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم. وذلك بخلاف السبك الذي يختص برصد الاستمرارية المتحققة في ظاهر النص[24].

هذا الانسجام هو عمدة البحث في التفسير الموضوعي للسورة، من خلال النظر في المناسبات في الآية الواحدة بين جملها، وبين مفردات الجملة الواحدة فيها، وبين الآية والآية، وبين المقطع والمقطع، وبين أول السورة وآخرها، وبين السورة والسورة. وليس المقصود التناسب الشكلي أو التركيبي الذي به يربط بين المفردات والوحدات والمقاطع كما في السبك أو الاتساق، لا، وإنما التناسب المعنوي الدلالي، وكيف يهدي الكلام بعضه إلى بعض، ويسترسل فيه، في تناغم وتجاوب بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، حتى لكأن السابق يدفعك إلى اللاحق، من دون الإحساس بالفراغ أو الفجوة، أو التنافر والتدافع بين المعاني.

وهذا الفن ـ فن المناسبة ـ فن عظيم، هو عمدة مَن سلك منهج التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم من أمثال الإمام حميد الدين الفراهي (-1930م) في تفسيره (نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان)، وسيد قطب (-1966م) في تفسيره

(في ظلال القرآن)، وهو عمدة (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) للدكتور مصطفى مسلم ورفاقه. وهو منهج سلكه السابقون أيضا وأبرزهم الإمام البقاعي (-885هـ) في تفسيره (نظم الدرر في تفسير الآيات والسور) والذي اختصره في كتابه (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، والسيوطي (-911هـ) من علماء القرآن في (أسرار ترتيب القرآن) و(تناسق الدرر في تناسب السور) و(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع) وغيرهم.

ولنَنظُر إلى هذا المعنى ينقله البقاعي في (نظم الدرر) عن شيخه أبي الفضل المشدالي البجائي المالكي (-864هـ) بقوله: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر في مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية، في كل سورة وسورة. والله الهادي"[25]، فستجده ماثلا بين عينيك تزاحمه معان أخرى كاستحضار الغرض الكلي، ومراعاة المتلقي يستشرف الكلام، وقصدية النظر في القرآن. كلها مما يعنى به الدرس اللساني المعاصر، قد تفطن إليه أولئك الأفذاذ، ومارسوه إجراءً في تحليلهم وتفسيرهم للخطاب القرآني!

3-**القصدية:**

المراد بها أن: "يتضمن موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك والالتحام، وأن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها. "[26] ويشير (روبرت دي بوجراند) و(وولفجانج دريسلر) إلى أن" فكرة القصدية تندرج تحتها مقاصد منتجي النصوص، ويدل أكثر معاني المصطلح مباشرة على أن منتج النص يقصد من أي تشكيلية لغوية ينتهجها لأن تكون نصا متضاما متقارنا. وأن القصدية بالمعنى الأوسع تشير إلى جميع

الطرق التي يتخذها منتجو النصوص في استغلال النص من أجل متابعة مقاصدهم وتحقيقها"[27].

فهؤلاء مؤسسو علم النص وأعلامه يشترطون أن يتغيا منتج النص نصا مسبوكا محبوكا حتى يتحقق وصف (النص) فيما أنتج، وهذه الغاية هي مأمول كل مؤلف أو كاتب أو أديب، أدركها أو لم يدركها! ولكن هل يسمى النص نصا إذا تميز بالسبك والحبك، في الوقت الذي لم يتقصد منتجه أن يكون كذلك؟

في البلاغة العربية الناطق بالبلاغة أو كاتبها، إن لم يتقصدها لم يُسَمَّ بليغا، وإن عَدَّ السامع أو القارئ كلامه بلاغة! إذ لا بد أن يكون مدركا لتصاريف كلامه، عالما إن هو قدم أو أخر، لِمَ قدم؟ أو لِمَ أخر؟ وكذلك إن عرّف أو نكّر، أو وصل أو فصل، أو ذكر أو حذف، أو صرّح أو كنّى، وهكذا.

وهذا المعيار (القصدية) لا يمكن أبدا مناقشته في حق الخطاب أو النص القرآني، لأنه من المعلوم ضرورة - عند المسلمين على الأقل - أن النص القرآني نص مفصّل محكم، مهيمن على غيره من الكلام، وصلت فصاحته وبلاغته(سبكا وحبكا ونظما. وإفرادا وتركيبا وأسلوبا). حدّ الإعجاز! قال-تعالى-: "الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود: 01]. والله-تعالى- أنزل القرآن في بيئة عربية بلغت القمة في سلم الكمال البشري في لسانها وبيانها، وتحداهم أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا، ثم بعشر سور مثله فما استطاعوا، ثم بسورة مثله فما استطاعوا أيضا، ثم بسورة من مثله فلم يستطيعوا، وأخبرهم أنهم لن يستطيعوا، هم وغيرهم، وإن اجتمعت الإنس والجن على ذلك! أفبعد هذا يسأل: هل يتقصد مُنزِّل الفرقان السبك والحبك فيما أنزل من قرآن؟!

أما أن يوجَّه السؤال إلى المشتغلين بالتفسير الموضوعي للسور، فممكن، وذلك باعتبار ما أنتجوا هم من نصوص تفسيرية، أي: قراءاتهم هم وتحليلاتهم هم للسور القرآنية، يُسأَلُون: هل يتقصدون السبك والحبك في ذلك؟ فنص تفسيري لسور القرآن العظيم صاحِبه مثلا الإمام حميد الدين الفراهي، وهو مَن هو في الفصاحة والبلاغة وقوة البيان، يتوصل إلى نظرية (النظام في القرآن)، أَتُرَاهُ يهمِلُ النظام

والتناسب فيما ينشئ من المعاني والمباني التي بها يفسر خير الكلام؟! وريشة سحرية كريشة سيد قطب برعت في تصوير المشاهد والشخوص، وتجسيد الأحداث والوقائع في صورة الحي المحسوس، أتراها تعجز أن تصبغ نصا بأصباغ الاتساق، وتزينه بزينة الانسجام؟! فهذان علمان، وغيرهما كثير، ومعلوم أنه من شرط المفسر الإلمام بعلوم كثيرة منها علوم النحو واللغة والبلاغة بمختلف فنونها. ولا أخال تاليا للقرآن، متدبرا معانيه، مشتغلا بتفسيره، متفرغا له، إلا ويفيض عليه القرآن من فيض عطائه، ويتكرم عليه من سمت نظمه ونسجه، ويغدق عليه من جميل سبكه وحبكه!

4-**التقبلية**:

(التقبلية) أو (القابلية) أو (القبول)، عند (روبرت دي بوجراند) و(دريسلر) هي: "اتجاه لدى مستقبلي النص في الاتصال، وعلى مستقبلي النص بالمعنى الأكثر مباشرة للتقبلية أن يقبلوا التشكيلية اللغوية على أنها نص متضام متقارن، وقابل للاستغلال"[28]. فهي تتضمن "موقف مستقبل النص إزاء كون صورة من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام"[29].

فالنص –إذن- لا يكون نصا في فهم علماء النص الا باعتبار قابلية المتلقي له، لكونه اتصف بوصفي السبك والحبك، أو الاتساق والانسجام، وهذه المسألة إذا جئنا إلى إسقاطها على موضوعنا (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) فإننا سننظر أيضا، كما في المعيار السابق، من زاويتين اثنتين:

الزاوية الأولى: أن يكون النص المقصود هو النص القرآني ذاته، والمتكلِّم بالقرآن هو الله-تعالى-، والمتلقي هو الإنسان، والإنسان مؤمن بالله وبكتابه الذي أنزل وكافرٌ، فإذا كان الكافر نفسه-وقت تنزيله- وهو يحاربه، ويحارب الرسول الذي أنزل عليه، يشهد بعظمة بلاغة هذا القرآن وبسحر بيانه، ويشهد لأسلوبه بالحلاوة والطلاوة، ويشهد له بالعلو وبالإثمار وبالإغداق، وبتحطيم ما تحته!! شهد بذلك الوليد بن المغيرة أبين قريش وأفصحهم، وأعرفهم بالشعر، وأقدرهم على الحجاج، وكذلك شهد مَن هم دونه من قومه! لكنهم لم يؤمنوا وعاندوا وكابروا! قال –تعالى: "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا"[النمل: 14]. وكذلك شهد الكثير ممن ليسوا مسلمين بذلك،

الخواص وخواص الخواص قبل العامة، منذ عصر التنزيل إلى يوم الناس هذا!. فإذا كان هذا حال من ليس مؤمنا بالله ولا بكتابه ولا برسوله، فكيف بالمؤمن به، أفترى النص القرآني يُجابَهُ عنده بالرفض والرد وعدم القابلية؟ إن هذا في عقيدة المؤمن لسؤال يضرب به وجه صاحبه! لأن حب المؤمن للقرآن وتعظيمه له مما لا يحتاج معه إلى حجة من حال أو مقال! وهذا عند عموم المسلمين العربي والعجمي منهم، فكيف بمن أوتي منهم حظًّا من هذا الكتاب، وحظًّا من آلة البيان؟!

الزاوية الثانية: أن يكون القصدُ النصَّ التفسيري للنص القرآني، أي النص الذي أنتجه المفسرون، يستوي في ذلك المشتغل بالتفسير الموضوعي ومن يشتغل بغيره من الألوان التفسيرية، فإنه يمكن حينها أن يحاكم هذا النص إلى بعض العوامل التي اجتهد في وضعها النصانيون لقياس مدى قابلية هذا النص عند المتلقي، لأننا حينها سنكون في معرض النقد لهذا النص أو ذاك، وهذا شأن كل نتاج أدبي، المتلقون فيه بين مُثْنٍ معجَبٍ، ومنتقِصٍ رادٍّ. ومن هذه العوامل[30]:

- احتمال بلوغ الهدف أو ضعف احتمال بلوغه.

- وجود أعراف اجتماعية ذات تكوين مستقر لبلوغ الهدف أو غياب تلك الأعراف.

- التدخل الممكن الوقوع لأصحاب التخطيط المضاد(أي فاعلين آخرين تتضارب أهدافهم مع هدف المبدع.

- المدى المطلوب في التخطيط أي (المدى القصير) في مقابل (المدى الطويل) أو عدد الخطوات اللازمة لتنفيذ الخطة.

فإذا جئنا مثلا– ومن غير إسقاط لهذه المعايير- إلى من ذكرنا من المهتمين بالدرس التفسيري الموضوعي لسور القرآن الكريم، كالإمام حميد الدين الفراهي وسيد قطب ود. مصطفى مسلم وفريقه، فإن نتاجهم مقبول عند عموم متلقيه، لا يضيرهم الآحاد من الرافضين، ويكفي في ذلك ما كتب في بيان إبداعهم وإسهامهم في خدمة النص القرآني. ذلك فضلا عن أن هذا اللون التفسيري حادث وجديد والإقبال عليه كبير، فهو كما يصفه من يشتغل به وينظِّر له (تفسير العصر)!

5-**الإعلامية**:

(الإعلامية) أو (الإبلاغية) أو (المعلوماتية)، وملخص ما تعنيه أن كل نص من النصوص يجب أن يتضمن قدرا من المعلومات، وتختلف هذه المعلومات باختلاف نوع النص"[31]. يقول عنها (روبرت دي بوجراند): " وهي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية، أو الوقائع في عالم نصي في مقابلة البدائل الممكنة. فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال. ومع ذلك نجد لكل نص إعلامية صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع"[32]. ويذكر في كتابه الآخر الذي كتبة بالاشتراك مع زميله (دريسلر) أن الإعلامية تستعمل "للدلالة على مدى ما يجده مستقبلو النص في عرضه من جدة وعدم توقع"[33].

وخلاصة مضمون النصين أن المتلقي يفيد من النص معلومات لم يكن يتوقعها، ففي الوقت الذي توجد بدائل كثيرة يمكن أن يعبر بها عن المعنى، يأتيه النص بما لم يكن يترقب. وهذا عين ما تفيده الانزياحات الأسلوبية أو العدولات البلاغية، ففي الوقت الذي تطرح أمام المنشئ للنص، وهو يوظف إمكانات اللغة في الاستمداد، بدائل كثيرة، تجده يختار ما ليس مألوفا عند المتلقي، فيكون بالنسبة للمتلقي جديدا يقبل عليه، فيزيد من تقبلية النص لديه، وهذه الانزياحات هي الميزة في الحكم على جودة النص أسلوبيا.

هذه الانزياحات أو العدولات لا يقدر عليها إلا الأفذاذ من ممارسي اللسان والمهرة في البيان، ولذلك سماها ابن جني (-392هـ) في (الخصائص) بـ(شجاعة العربية) ونقلها عنه غير واحد. ولذلك عبر بعضهم عن الأسلوب بأنه (الاختيار الواعي)! والعدولات التي بها تحقق الإعلامية ممارسة في تراثنا الإسلامي باختلاف الاختصاصات، وفي المجال البلاغي خاصة، والتفسير ليس مستثنى من الفنون، بل إنه الأرضية الخصبة للإجراءات والممارسات البلاغية، فلا ننسى أن نشأة البلاغة كانت في أحضان الدرس الإعجازي. ولذلك فإن العدول في التعبير القرآني هو من صلب اهتمام البحث البلاغي، ولا غرو أن يعتني به المفسرون، والمفسرون اللغويون والبيانيون خاصة. أما

التفسير الموضوعي للسورة، وإن كان هذا الأمر من اهتماماته، فإنه وبحسب ما استقر عليه اليوم، ليس بالقدر الذي يبحثه أهل التفسير اللغوي والبياني، بل إنهم يجنحون إلى الوقوف عند جوانبه بقدر الحاجة إليه، وهو ما نجده عند الدكتور مصطفى مسلم وزملائه في (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)، وفي كتابه (مباحث في التفسير الموضوعي)، وكذلك عند سيد قطب في (في ظلال القرآن)، وعند الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي في (التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق) وغيرهم ممن عني بهذا الفن. وأما الإمام حميد الدين الفراهي فمن منهجه في بحثه لنظام القرآن في السورة القرآنية أن يقف عند الأسرار واللطائف البلاغية.

ولذلك فإن الذوق البلاغي والبياني ينمو ويربو بفهم مثل هذه العدولات التي فيها اللطائف والأسرار، لأن المتلقي لا شك سيتساءل عن سر العدول عن المعهود إلى غيره، وهو ما يوقفه على المزية في الاستعمال، والمزية عين ما تبحثه وتتغياه البلاغة. فيكون التشوف في حد ذاته إلى معرفة السر والتساؤل عنه تعلما، ومرتقى لا بد منه للوصول إلى المزية.

6-**المقامية**:

(المقامية) أو (الموقفية)، ويعنى بها سياقات النص المختلفة التي أنتج فيها النص أو التي بها ارتبط حال إنتاجه، ويربطها (فان دايك) بـ: "العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النص في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيره"[34]. وتوضيح ذلك أن "مصطلح (الموقفية) تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف معين، سواء أكان حاضرا أم قابلا للاسترجاع، وأنه من النادر أن تتحقق تأثيرات مقام سياقي معين بدون التوسط، وان تغذية النموذج بالقرائن المتيسرة تتم جنبا إلى حنب مع توقعات ومعرفة سابقة بشأن كيفية تنظيم (العالم الواقعي)"[35].

هذه الظروف التي تجعل النص يرتبط بمقام أو موقف معين حالي، أي حال إنتاج النص، أو بمقام قابل أن يتكرر، هي ما يعرف بـ(السياق)، وأهمية السياقات في تحليل النصوص مما لا يخفى على أحد، ويعدُّ (فردينان دي سوسور) من أبرز المهتمين

بالسياق عندما يبين أن العنصر (الكلمة) لا يكتسب قيمته إلا بمقابلة ما يسبقه أو ما يأتي بعده أو هما معا في آن واحد[36]. وهذا الذي ذكره (دي سوسور) قد سبق إليه عبد القاهر الجرجاني في نظريته (النظم)، وعلماء القرآن في باب (التناسب) أو (المناسبة).

والسياق سياقان: سياق داخلي أو لغوي يتقيد بالنص فلا يخرج عنه، والقرائن والإحالات كلها داخل النص، وسياق خارجي أو غير لغوي، وهذا يشمل عند اللسانيين أمورا كثيرة منها[37]:

-القرائن الحالية وأنماط الوقائع المحيطة بالمقال اللغوي.

-الأبعاد اللغوية والثقافية المتعددة: سياق ثقافي-سياق اجتماعي – سياسي – اجتماعي –ديني -بيئي.

-الحالة النفسية أو العاطفية لأطراف العملية اللغوية (السياق العاطفي) والدلالات الإيحائية أوالضمنية.

-نوع الخطاب الذي يحمله النص اللغوي(قضائي- دعائي- فني -سياسي).

-طبيعة النص وغايته المتوخاة في المشتركين (إقناع - إغراء –سخرية).

-مدى تعلق النص بما سبقه من نصوص (التناص).

-مكان الكلام، وجنس المكلمين، ومن يشهد الموقف الكلامي.

-الإشارات المصاحبة للعملية الكلامية (بالطرف، بالحاجب، باليد، بالرأس).

-التاريخ أو الزمن الذي تجري أوجرت فيه العملية اللغوية، لأن التاريخ جزء من فعل السياق في تحديد الدلالة.

-قناة التواصل (شفهية، كتابية، إذاعية، تلفازية).

والسياق بعمومه الداخلي والخارجي مما لا يهمله المفسرون، ويستصحبونه في تفسيرهم للنص القرآني، ومنهم أصحاب اتجاه التفسير الموضوعي للسور، والمثال على ذلك النماذج الثلاثة التي سبق ذكرها(الفراهي-سيد قطب-مصطفى مسلم)، وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى جانبين من جوانب السياق راعاها المفسرون، وبحثهما علماء القرآن منذ القديم، ذلكما هما (أسباب النزول) و(المكي والمدني من القرآن)، ومن

علماء القرآن من يجعل كلا منهما علما قائما بذاته، لا بابا من أبواب علوم القرآن وحسب، وكذلك كانا قبل أن تجمع علوم القرآن في تصنيف خاص.

أما (سبب النزول) فهو ما نزل بشأنه قرآن وقت وقوعه كحادثة أو سؤال[38]. ويعدُّ سياقا زمنيا، وقرينة حالية كان لأجلها نزول النص القرآني: الجزء من الآية أو الآية أو المقطع من الآيات أو السورة. وأما (المكي والمدني) فسياق مكاني، وفي المراد بهما أقوال، الراجح منها أن المكي ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة وإن بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن بغير المدينة[39].

فالحديث إذن عن (أسباب النزول) وعن (المكي والمدني) حديث عن سياقين: زماني ومكاني، فبالأول يتمكن المتلقي من معرفة العلاقة بين النص القرآني والواقع الخارجي الذي هو سبب نزوله، وبالثاني يتمكن من استيعاب السياق التاريخي والاجتماعي الذي نزل فيه. وهذا يعني أن المفسرين وعلماء القرآن عموما يستوعبون ومنذ القديم هذا العنصر الذي انتهت إليه نظريات علم النص وتحليل الخطاب المعاصرة، وتوقف عنده اللسانيون المعاصرون، منهم (براون) و(يول) اللذان يذهبان إلى " أن محلل الخطاب ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب(والسياق لديهما يتشكل من المتكلم والمستمع// القارئ، والزمان والمكان)، لأنه يؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب، بل كثيرا ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين"[40].

ويعبر (هالداي) عن السياق بأنه "النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، والنص الآخر لا يشترط بأن يكون قوليا، إذ هو يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"[41]. فهو في نظر (هاليداي) مجرد مذكرة تفسيرية أو إيضاحية تلي النص، لا تسبقه ولا توازيه، وهذا ما تجاوزه علماء القرآن الذين نظروا إلى السياق بوصفه طاقة دينامية فاعلة في تشكيل الخطاب نفسه، وليس مجرد إطار ساكن، ولك أن تتعجب من هذا الفهم المتقدم لطاقة النص التخاطبية، ومدى تأثير هذه الطاقة على بنية النص الداخلية وأسلوبه، وهو ما انتهت إليه نظريات الخطاب مؤخرا[42].

ويمكن القول: إن سبب النزول ومكية السورة أو مدنيتها بمنظور لسانيات النص نص آخر هو عند المفسرين عموما وأهل التفسير الموضوعي للسورة خصوصا يرافق النص ويصاحبه ويدخل في توجيه بنيته ومعناه.

7-**التناص**:

ظهر مصطلح (التناص) أول ما ظهر على يد الباحثة السيميائية البلغارية (جوليا كريستيفا)، في منتصف الستينيات من القرن العشرين(1966-1967م)، و"يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى سابقة أو معاصرة له، بحيث يصبح النص بنية مقتطعة من بنيات أخرى"[43]، فهي ترى أن النص-أي نص- إلا ويتأثر بنص آخر، ويؤثر في نص آخر، فكأن (التناص) في نظرها ما يحصل من علاقات تأثر وتأثير بين النصوص[44].

ويبين الباحثان دي بو جراند ودريسلر "أن الطرق التي يعتمد فيها على إنتاج نص ما، واستقباله على معرفة المشاركين بغيره من النصوص تندرج تحت التناص، وقالا: إنه من الممكن تطبيق هذه المعرفة عبر معالجة تعتمد على التوسط، وأنه كلما اتسعت الشقة بين استعمال نص حالي واستعمال نص واجهه المرء من قبل ازداد حجم التوسط"[45].

فالتناص في الفهم اللساني أو النصي هو التعالق بين النصوص، بأن يتأثر نص بآخر فيأخذ منه بصورة من الصور، وسواء صرح صاحب النص (الآخذ) أو لم يصرح، بل سواء علم بأنه يلتقي في نصه بنص آخر أو لم يعلم. بل ولو أن تكون الصورة ذهنية يستحضر القارئ للنص الحالي فيها نصا آخر. وللنظر في هذه المسألة وربطها بموضوع بحثنا، وهو التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وهل التناص ممارس فيما كتبه علماء هذا الفن أو لا؟ وهو نظر نقرؤه أيضا من الزاويتين نفسيهما واللتين سبقتا مع المعيارين السابقين:

أولا: باعتبار القرآن الكريم نصا، وهو المدونة التي يبحثها التفسير الموضوعي للسورة، فإن القول بالتناص فيه بإطلاق ومن غير تروٍّ قد يكون مجازفة كبيرة، قد توقع في المحذور، والأصل التحفظ مع كتاب الله وعدم التسرع في الجزم بالأحكام! لكن

قد يسأل سائل فيثير بتساؤله تساؤلات: ألا يوجد في كتاب الله ما وجد في كتب سماوية سابقة منزلة من الله-تعالى- على رسله؟ والتساؤل مشروع، وقد بحث علماء الأصول مضمونه من زاوية فقهية تشريعية تحت باب(شرع مَن قبلَنا). أيجوز أن يقال حينها -فيما وجد في القرآن من مثل ذلك-: أن بين النصين تناصا، والحال أنهما من متكلم واحد؟!

ثانيا: باعتبار المفسر قارئا للنص القرآني ومحللا له، فإنه ينتج نصا يستعين فيه – في فهمه للنص القرآني- بنصوص أخرى كاستعانته بالقراءات القرآنية أو بنصوص الحديث النبوي الشريف الصحيح، أو بما صح من أقوال الصحابة –رضي الله عنهم- والتابعين وتابعيهم وغيرهم من الأعلام. فهذا كله قد يكون من التناص، لأن المفسر ينهل من هذه النصوص ليدعم فهمه للنص القرآني، والله أعلم.

وعموما فإن المعول عليه في باب الممارسة النصية في التفسير الموضوعي للسورة هو عناصر أربعة خاصة: الوحدة الموضوعية للنص، والسبك (الاتساق)، والحبك (الانسجام) والمقامية (الموقفية). فهذه أبرز أربعة معايير، سبق ولا شك التفسير الموضوعي للسورة فيها تنظيرا وممارسة علم النص أو لسانيات النص، وأما المعايير الأخرى فإثارتها هنا من باب المحاولة والاجتهاد في إيجاد أوجه تعالق بين بحثها في الدرس النصي وممارستها في الدرس التفسيري الموضوعي للسورة، إذ غالب من حاول مقاربة النص القرآني من زاوية علم النص اكتفى بالمعايير الأربعة تلك، أو بمعياري السبك والحبك خاصة، فحسبي أني اجتهدت مخلصا ومعتقدا قداسة النص القرآني، ولأني بهذا الجهد لا أحاكم النص القرآني إلى هذه المعايير، فهو فوقها، وهو نص حاكم لا محكوم عليه، ونص منزه عن كل عيب ونقص. وإنما كان القصد بيان كيف عرض المفسرون معاني هذا الكتاب، في اختصاص التفسير الموضوعي للسورة، وهل سبقوا بما قدموا ما توصل إليه (علم النص) المعاصر؟

ولعل ما فعله (علم النص) هو أنه جمع تلك المعايير، والتي بحثت ولا شك عند الغربيين المعاصرين لكن بحثها كان مفرقا على فنون شتى، وبين باحثين مختلفين في مجالات مختلفة، تماما مثلما كان بحثها في التراث العربي تنظيرا وإجراء مفرقا إلى أن

جمع أهمها وآكدها التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، تنظيرا وإجراء، فكان له بذلك فضل السبق. مع ملاحظة فرق بارز هو أن البحث المتفرق لها عند الغربيين إنما كان عند المعاصرين منهم، بخلاف بحثها المفرق عند العرب، فإنه ظهر وإن بدرجات متفاوتة مع البدايات الأولى لعلم التفسير أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني، وليس فقط بظهور التفسير الموضوعي للسورة. ليبرز بحث بعضها ببروز نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، وليوظفها توظيفا نسبيا كل من الزمخشري والرازي في تفسيريهما في القرنين السادس والسابع، ولتتضح الصورة أكثر وتتجلى في القرن التاسع مع الإمام البقاعي وتركيزه على الوحدة الموضوعية والمناسبة بين الآيات والمقاطع والسور القرآنية، إلى أن تكتمل الصورة بظهور التفسير الموضوعي للسورة، واعتماده في مناهج الأزهر الشريف، في القرن الرابع عشر الهجري.

يقول تمام حسان مخبرا عن حال هذه المعايير عند الغرب قبل أن يجمعها (علم النص): "وليست هذه المعايير جديدة بطبيعة الحال، ولكن علاجها حتى هذه اللحظة جاء مفرقا ومدمجا. فلقد تضخم السبك والالتحام مثلا بسبب الخلط في طبيعة الجملة. إن مفهومي السبك والالتحام يمكن العثور عليهما في أعمال مثل هاليدي (1964) كريمس (1968) وهارفيج (1968). أما في شأن القبول فاقرأ كيرك سفارتفيك (1966) وجرينباوم (1977). وأما عن رعاية الموقف فإن عمل هاليداي مثلا (1977). ومن أجل نظرات عامة لتناص اقرأ كريستيفا وكيرك (1987). أما عن الإعلامية فقليل ما يمكن أن يوجد إلا حول المعرفة المسبقة والجديد في الجمل. كل هذه المعايير السبعة للقضية نوقشت بالتتابع في عمل بوجراند ودريسلر (1980). ومن هذه المعايير السبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنص (السبك والالتحام)، واثنان نفسيان بصورة واضحة (رعاية الموقف والتناص)، أما المعيار الأخير (الإعلامية) فهو بحسب التقدير. ولكن يظهر من النظرة الفاحصة أنه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يفهم دون التفكير في العوامل الأربعة جميعا: اللغة والعقل والمجتمع والإجراء. ومرة أخرى تظهر الحاجة الشديدة الإلحاح إلى البحث في تكامل العلوم"[46].

كانت تلكم محاولة للإجابة عما تساءلنا عنه أول البحث، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

مراجع البحث وإحالاته:

1ينظر: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق- دراسة نظرية تطبيقية مرفقة بنماذج ولطائف التفسير الموضوعي، دار النفائس، عمان، الأردن، ط2102/3، ص3-132، 74. والتسمية بالتجزيئي والتوحيدي نقلها عن محمد باقر الصدر في كتابه (المدرسة القرآنية: ص09) كما أوردها هو في ص. 74 ولتراجع هذه الأنواع في المرجع نفسه أو في غيره من كتب علوم القرآن.

2د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط1989/1، ص16.

3ينظر: د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، ص. 16 وصلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص05.

4صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ص4.

5 تنظر هذه الأقسام في: د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، ص23-29، و صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ص59-64.

6لا يرى الدكتور عبد الستار السعيد البحث في الوحدة الموضوعية للسورة من التفسير الموضوعي، وفي ذلك يقول: "يتجنب المفسر الكتابة تحت هذا العنوان فيما يسمى بـ(النظام في القرآن) أو (الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم) أو التفسير الموضوعي بمعناه العام، كالنسخ في القرآن ونحوه، أو (علم المناسبات) لأن هذه الجوانب مع جلالتها وأهميتها، لكنها خارجة عن مصطلح (التفسير الموضوعي)" ا. هـ. ينظر: عبد الستار السعيد: المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص-57-58، نقلا عن: الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص83.

7د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، ص28-29.

8د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ص65.

9 يوظف الباحث في هذا البحث مصطلح (علم النص) أحيانا، وأخرى مصطلح (لسانيات النص).

10فاتح زيوان: مصطلحا الخطاب والنص، الدلالة في الثقافة العربية، مجلة كتابات معاصرة، ع 70، م 18، بيروت، 2008، ص97، نقلا عن: د. محمد عبد الباسط عيد: النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، تقديم: صلاح رزق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2009/1، ص16.

11تون ا. فان دايك: علم النص-مدخل متداخل الاختصاصات-، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1/2001، ص80-79.

12 فان دايك: علم النص، ترجمة وتعليق: د. سعيد بحيري، ص80.

13ينظر: فان دايك: علم النص، ترجمة وتعليق: د. سعيد بحيري، ص209-210، وأوردها منسوبة إليه ووضحها د. صلاح فصل في: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 164، 1992، ص204-205، 236.

14ينظر: فان دايك: علم النص، ترجمة وتعليق: د. سعيد بحيري، ص210.

15 ينظر: فان دايك: علم النص، ترجمة وتعليق: د. سعيد بحيري، ص 80-86. ونقل ذلك عنه ووضحه د. صلاح فضل في: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص238-241.

16 د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي، ص41-46.

17اختلف الدارسون في تحديد مفهوم مصطلحي (النص) و(الخطاب) على أقوال كثيرة، منها أنهما بمعنى واحد، وهو المختار في هذا البحث.

18 ليندة قياس: لسانيات النص، النظرية والتطبيق، مقامات الهمذاني أنموذجا، تقديم: أ. د عبد الوهاب شعلان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2009/1، ص23.

19 روبرت دي بو جراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1998/1، ص103.

20 محمد خطابي: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1991/1، ص5.

21 راجع إن شئت: د. مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، إصدار رقم 102، ط2010/1، المقدمة، ص(ج).

22 ينظر: روبرت دي بو جراند: النص والخطاب والإجراء، ص103.

23ليندة قياس: لسانيات النص النظرية والتطبيق، مقامات الهمذاني أنموذجا، ص24.

24 ينظر: د. سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعري-دراسة في قصيدة جاهلية- فصول (مجلة النقد الأدبي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد 10، العدد 1-2، يوليو- أغسطس، 1991، ص154.

25 البقاعي برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1984، ص17-18.

26 روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص103.

27 عاصم شحادة علي، مراجعة كتاب مدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظرية دي بو جراند وولفجالج دريسلر، لأبي غزالة إلهام، وأحمد علي خليل، مجلة التجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1999/2، المجلد 16، العدد 31، 1432هـ-2012م، ص242-243. والمقصود بالتضام والتقارب: السبك والحبك.

28عاصم شحادة علي، مراجعة كتاب مدخل إلى علم لغة النص، مجلة التجديد ص243. (التضام والتقارب: السبك والحبك).

29 روبرت دي بو جراند: النص والخطاب والإجراء، ص104.

30 ينظر: روبرت دي بو جراند ودريسلر: مدخل إلى علم النص، ص124، نقلا عن: د. حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، تقديم: د. سليمان العطار، ود. محمود فهمي حجازي، مكتبة لآداب، القاهرة، ط2007/1، ص51-52.

31ليندة قياس: لسانيات النص بين النظرية والتطبيق، ص24.

32روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص105.

33 عاصم شحادة علي، مراجعة كتاب مدخل إلى علم لغة النص، مجلة التجديد: ص243.

34روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص104.

35عاصم شحادة علي، مراجعة كتاب مدخل إلى علم لغة النص، مجلة التجديد، ص244.

36 ينظر: فردينان دي سووير: علم اللغة العام، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي، سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية، رقم: 3، دار آفاق عربية، الأعظمية، بغداد، العراق، 1985، ص142.

37 ينظر: أ. د. هادي نهر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، تقديم: أ. د علي الحمد، دار الأمل، إربد، الأردن، ط2007/1، ص264-265.

38ينظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1985/15، ص78.

39ينظر: السيوطي جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن (بهامشه "إعجاز القرآن" للباقلاني)، مطبعة حجازي، القاهرة، د/ ط-ت، ص45.

40محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص52.

41د. يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص43-44، نقلا عن: د. محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ص24-25

42ينظر: محمد عبد الباسط عيد: النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ص25، وأحال إلى: طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2006/2، ص215 وما بعدها. والموضع المحال إليه فيه حديث عن(العلاقة التخاطبية) والعوامل المؤثرة فيها

43 ليندة قياس: لسانيات النص النظرية والتطبيق، مقامات الهمذاني أنموذجا، ص23.

44ينظر: نفسه: ص179.

45 عاصم شحادة علي، مراجعة كتاب مدخل إلى علم لغة النص، مجلة التجديد، ص244.

46 النص والخطاب والإجراء: ترجمة د. تمام حسان، ص105-106.